بحوث ودراسات

التجديد

المجلد 21، العدد 41 (أ) (2017/1439) 243-277
حقوق الطبع محفوظة لـ IIUM Press
الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا
ISSN 1823-1926 (Print)

# عصرُ الانحطاط بين القبول والرفض

## The Age of Decline between Adoption and Rejection

## *Era Keruntuhan antara Penerimaan dan Penolakan*

**رحمة بنت أحمد الحاج عثمان [*] ومحمد سعيد الحجري [**]**

## ملخص البحث

مرَّت الحضارة العربية بمراحل مختلفة رسمت مسار التطور الأدبي والفكري فيها، ومن خلال استقراء آراء الباحثين والنقاد والمفكرين؛ يتَّضح اختلاف وجهات النظر في تلك العصور التي طبعت سيرورة الحضارة والفكر، فمن الاختلاف في التحديد الزمني, إلى الاختلاف في تسمية تلك العصور، إلى الاختلاف في وجهات النظر والأسباب التي كانت العامل الأول في الانحطاط أو التخلف عند من يراه تخلُّفًا وانحطاطًا، أو عوامل التقدم والازدهار عند من يراه كذلك، وفي هذه الورقة العلمية سنتطرق إلى هذه العناصر بشيء من البحث مقرونة بالشواهد من كلام الباحثين والمفكرين والأدباء على اختلاف آرائهم، في محاولة للتعرف على مظاهر ذلك العصر، وحدوده الزمانية والمكانية، وما رافقه من أحداث سياسية كانت إما سببًا في التراجع وإما سببًا في الازدهار، كما سنتطرق أيضًا إلى تسميات تلك المرحلة ومعانيها، والأحكام المراد إطلاقها من خلال تلك التسميات، والمغزى من ورائها، وبعد ذلك سنصل إلى علاقة الحياة الفكرية لذلك العصر بالأدب العربي ومدى تأثُّره بذلك من الجانبين السلبي والإيجابي، وكذا العلاقة بين الحركة العلمية والأدب، إلى أن

[*] أستاذة دكتورة بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، البريد الإلكتروني: rahmahao@iium.edu.my

[**] عضو مجلس الشورى بسلطنة عمان، البريد الإلكتروني: alhajri.m@shura.om

نصل في النهاية إلى مفهوم الانحطاط عند بعض المفكرين والأعلام الذين تطرقوا لتلك المرحلة بالتحليل والدراسة بين رافض وصف تلك العصور بالانحطاط والظلامية إلى مُبيِّن أسباب ما ذهب إليه.

**الكلمات الرئيسة:** الانحطاط، الجمود، القبول، الرفض، الحركة العلمية، الأدب العربي.

## Abstract

The Arab civilization has passed through various junctures and has paved way for intellectual development and the advancement of literature as well. The presence of too many variances of opinions are obvious from the induction of researchers, criticizers and intellectuals about that particular age that impressed the process of thought and civilization. These variances range from fixing the chronological limitations of that age and calling them with distinguished names. They also include different viewpoints regarding the reasons that were primarily instrumental for the decline of that particular age (according to those who believe in that decline), or advancement and enrichment of it (as for those who believe it to be the advancement). In this research, we would attempt to explore such variances of opinions followed by witnesses of researchers, intellectuals and men of literatures, along with a wide spectrum of their opinions regarding that age in terms of understanding the features and determining the boarders of that age, along with its political atmosphere whether it enriched the literature or not. We will also explore the names suggested for that age, purposes behind and significance of those names. Later, we will discuss on the relation of intellectual life of that age with literature irrespective of its positive or negative impacts. We will also discourse on the relation of scientific movement and the literature. We will conclude the discussion describing the concept of decline advocated by some intellectuals who ventured a detailed analysis of that 'age of decline'.

**Keywords:** decline, paralysis, adoption, rejection, scientific movement, Arabic literature.

## Abstrak

Tamadun Arab telah melalui pelbagai fasa yang mencorakkan perkembangan sastera dan pemikiran di dalamnya. Hasil penelitian pendapat para pengkaji, pengkritik dan intelektual; jelas wujud perbezaan pendapat tentang era tersebut dalam mengklasifikasikan perjalanan tamadun Arab dan pemikirannya. Perselisihan pendapat berlaku pada penentuan masa dan penamaannya sehinggalah kepada penentuan faktor utama kejatuhan atau kemunduran bagi yang memandangnya jatuh dan mundur, atau faktor-faktor kemajuan dan kemakmurannya bagi yang memandangnya sedemikian. Kajian ini meneliti perkara-perkara tersebut dan diiringi dengan kenyataan para pengkaji, intelektual dan sasterawan yang berbeza pendapat tentangnya dalam percubaan mengenal pasti aspek-aspek era tersebut, sempadan garis masa dan tempatnya, keadaan politik yang digambarkan oleh penamaannya serta signifikannya. Selanjutnya, kita akan meneliti hubungan kehidupan

intelektual pada zaman tersebut dengan sastera sehinggalah kepada konsep keruntuhan pada sebahagian intelektual dan figura yang mengamati fasa tamadun Arab menerusi analisis pendapat yang menolak untuk mensifatkan zaman tersebut sebagai zaman keruntuhan dan kegelapan dan juga sebab-sebabnya.
**Kata kunci:** Keruntuhan, kejumudan, penerimaan, gerakan intelektual, sastera Arab

## مُقدِّمة

لا تعرف الحياة الأدبية الحدود بين مرحلتين أدبيتين سابقة ولاحقة، إلا أن الأحداث المتزامنة للحركة الأدبية عادة تكون معا لم تحديد زمانية ومكانية لتأريخ تطور الأدب والفكر؛ لذا نجد المؤرخين ينسبون تلك الأزمنة إلى الحالة السياسية أو الدينة أو الفكرية؛ كما سيأتي.

ورغم الاختلاف في التحقيب للانحطاط زمنيًّا؛ يُعدُّ دخول المغول بغداد وسقوط الخلافة العباسية مَعْلَمًا يكاد يُتَّفق عليه في تغيُّر الاتجاه الفكري والعلمي والأدبي للبلاد العربية، وإن لم يكن شاملاً الأقطاب كلها فإن أغلبها تأثَّر به بعد أن انقسمت الخلافة إلى دويلات متناثرة، وإن كانت التطورات السياسية والتاريخية الأساس في تعيين عصر الانحطاط، فإن المرحلة الدائرة حولها الجدل تستمر إلى القرن الثالث عشر الهجري بداية من القرن السابع الهجري، وقد شهدت تطورات متسارعة ولا سيما في الجانب السياسي بين عصر المماليك، والخلافة العثمانية، وفيما يخص الحياة الأدبية آنذاك ذهب أكثر المفكرين والأدباء إلى اتباع المعلم السياسي في تقسيمها، فجعلوها قسمين: عصر المماليك، والعصر العثماني؛ بداية بالإنجازات الحضارية التي قام بها المماليك وكان لها الأثر الإيجابي في الحركتين الأدبية والفكرية معًا، في حين يرى بعضهم أن التشهير بعصر المماليك ما هو إلا محاولة إضفاء للشرعية على حُكمهم أغلب أقطار البلاد العربية وأكبرها حينئذ.

وقد كثرت الأسباب في تميُّز العصر المملوكي من العصر العثماني؛ بعضها سياسي، وبعضها حضاري، وما مرَّ به الفكر العربي بعد سقوط الخلافة العباسية جدير بالتأمل والبحث؛ لهول النكبات ومعركة الحياة أو الموت التي واجهتها الثقافة العربية التي كانت تسير

بحُكم غير عربي سواء من المماليك أم من العثمانيين، والسبب الأكثر أهمية الذي يدفعنا للنظر في تلك المرحلة هو قدرة الأدب العربي على العطاء بعد تلك المحن والمصائب كلها.

وبغض النظر عن الاختلاف في التسميات والنعوت التي أطلقها الباحثون والمؤرخون على تلك الحقب؛ يتأكد التغير فيها، سواء التجأنا إلى العصور السياسية لتمييز ذلك التغير، أم إلى حركة التدوين والتأليف، أم إلى ما احتوته تلك المؤلفات على مرَّ القرون الستة، وسيظهر لنا من خلال هذا البحث ارتباط الحركة الأدبية والفكرية بالسياسة ونظام الحكم، فقوة الحركة الأدبية ونشاطها تعود إلى حالة الاستقرار السياسي، ومدى عناية رجال الدولة بالمفكرين والأدباء، ولما كانت تلك العناية متوفرة، فإن كثير من المعاصرين يرفضون وصف تلك المرحلة بعصر الانحطاط؛ لأن العطاء ما زال متوفرًا متنوعًا؛ دليلهم في ذلك أن الأدب والفكر بقيا محفوظين إلى ما بعد تلك المرحلة بعصور؛ وفي المقابل هناك من ذهب إلى وصفها بالانحطاط والضعف والركود؛ لأن الحركة الأدبية اقتصرت على تدوين ما مضى وشرحه والتعقيب عليه، ولا شك في أن للسياسية ونظام الحكم ورجالاته أثرًا كبيرًا في ذلك.

## الحدود الزمانية والمكانية للمرحلة

على عادة الأحداث التاريخية الضخمة الحاسمة؛ لم يكن سقوط بغداد في أيدي المغول عام 656 هـ/1258م، فاصلاً زمنيًّا صارمًا بين عصر مضى وعصر أتى؛ أي إنه لم يكن انقلابًا تامًّا ونهائيًّا بين هذين العصرين بحيث يُؤرَّخ لنهاية عصر قديم ولبداية عصر جديد تمامًا؛ ليتجلى أثر ذلك الانقلاب في مختلف جوانب الحياة سياسية كانت أم اجتماعية أم فكرية أدبية؛ ولكن ذلك الحدث يرمز بهوله وضخامته وآثاره إلى نهاية عصر الذروة في التاريخ الإسلامي، وإلى بداية النهاية للتألق الحضاري، ومع أن ملامح التراجع كانت قد بدأت في الظهور قبل سقوط بغداد، حتى ليُمكن القول إن سقوط بغداد كان نتيجة مقدمات سبقته؛ إلا أن السقوط كان من غير شكٍّ علامة فارقة في التاريخ العربي الإسلامي تركت آثارًا كبيرة

على جوانب الحياة الإنسانية كلها، ومع أن الحياة الأدبية في صيرورتها لا تعرف الحدود الحاسمة الفاصلة بين مرحلة أدبية سابقة ومرحلة أدبية لاحقة؛ تستعين في تحقيب مراحلها الأدبية بمفردات من خارج حقلها الأدبي، وهي في تاريخ الأدب العربي تستعين بمفردات التاريخ السياسي أو الاجتماعي؛ لذا نعرف من عصور الأدب العربي: العصر الجاهلي، والعصر الإسلامي، والعصر الأموي، والعصر العباسي، وعصر الدول المتتابعة.

ونُلاحظ هنا أن التغير في الحياة الأدبية، وفي المزاج الأدبي، وفي الذوق الأدبي العام، وفي الأسلوب واللغة الأدبيين؛ لم يبدأ بالتأكيد بعد سقوط بغداد، بل كان لذلك إرهاصات وافرة سبقت هذا الحدث،[1] بيد أن هذا الحدث على جلاله جُعل علامة – وإن لم تكن حاسمة – لبداية حقبة أدبية اتضحت ملامحها وتبلورت صورتها بالتدريج في أثناء العصرين المملوكي والعثماني؛ لذا كان جعلُ بداية هذه المرحلة بسقوط بغداد يكاد يكون عملاً إجرائيًّا تفرضه الرغبة في التحقيب الزمني، واستجابة لدواعي البحث العلمي؛ إذ لا يمكن أن تُدرس الظواهر الأدبية من غير تحديد حقل زمني تتوفَّر فيه جملة من الخصائص المميزة من غيره؛ أما التحديد التاريخي الدقيق لهذه المرحلة فإن العصر المملوكي حسب جميع الباحثين يبدأ بسقوط بغداد في أيدي المغول عام 656هـ/1258م؛ لأن سقوط بغداد في أيدي المغول ووصول الطوفان المغولي إلى الأطراف الشرقية للبلاد العربية مهَّد البروز السياسي والعسكري للمماليك مدافعين عن العالم الإسلامي، مما أدى إلى حدوث أعظم إسهام للمماليك في التاريخ العربي والإسلامي متمثلاً بهزيمتهم المغول في عين جالوت عام 658هـ/1260م وإيقافهم المدَّ المغولي بعد عامين من سقوط بغداد، بقيادة اثنين من أعظم حكامهم التاريخيين: المظفر قطز، والظاهر بيبرس.

يقول جرجي زيدان مؤرخًا هذه الحقبة ومسمِّيًا الدور المملوكي منها (العصر المغولي): "العصر المغولي 656-922هـ... يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول

1 يُنظر: ضيف، شوقي، **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، (القاهرة: دار المعارف، ط10، د.ت)، ص282-295.

على يد هولاكو سنة 656هـ، وينتهي بدخول العثمانيين مصر على يد السلطان سليم الفاتح سنة 923هـ"،[1] ويؤكد جودت الركابي هذا التحديد حين يقول: "تبدأ عصور الانحطاط أو الانحدار باستيلاء المغول على بغداد عام 656هـ/1258م، وقضائهم على الخلافة العباسية فيها، وتنتهي بدخول نابليون الأول مصر عام 1213هـ/1798م"،[2] ونلاحظ على تحديد الركابي هذه المرحلة أنه شمل الدورين المملوكي والعثماني جاعلاً من سقوط بغداد بداية لما سماه (عصر الانحطاط) أو (الانحدار)، وجاعلاً نهايته نهاية السيطرة العثمانية على مصر بقدوم الحملة الفرنسية، غير أن هذا التحديد الزمني لا يراعي إلا الحركة التاريخية في أحد الأقاليم العربية الإسلامية المهمة؛ أي مصر، ناهيك عن أنه يجعل من سقوط مدينتين عربيتين مهمتين بداية ونهاية لمرحلة قلقة من التاريخ الأدبي العربي، أما أدونيس فيرى أن هذه الحقبة التي سميت (الفترة المظلمة) متفق على بدايتها مع سقوط بغداد عام 1258م، ولكن الآراء في تاريخ نهايتها أربعة:

- تنتهي سنة 1798م بدخول نابليون إلى مصر.
- تنتهي في أواخر القرن التاسع عشر.
- تنتهي بإعلان الدستور العثماني سنة 1908م.
- تنتهي بانتهاء الحرب العالمية الأولى 1914م.[3]

هذه القرون المتطاولة من القرن السابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري؛ لم يسر فيها التاريخ على وتيرة واحدة، ولكنها شهدت صعودًا وهبوطًا لدولتين كبيرتين في العالم الإسلامي هما دولة المماليك بقسميها: المماليك البحرية والمماليك البرجية، وكذلك الدولة العثمانية، بالإضافة إلى دول أخرى عدة ظهرت في أنحاء العالم العربي

1 زيدان، جرجي، **تاريخ آداب اللغة العربية**، (مصر: دار الهلال، ط1، د.ت)، ج3، ص121.

2 الركابي، جودت، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، (دمشق: دار الفكر، د.ط، 1982)، ص120 .

3 يُنظر: أدونيس، علي أحمد سعيد، **الثابت والمتحول**، (بيروت: دار العودة، ، ط1، 1978)، ج3، ص53؛ مع ملاحظة أن الحرب العالمية الأولى لم تنته 1914، بل انتهت عام 1918.

والإسلامي وفي أطرافه، ومن ناحية التاريخ الأدبي ينظر دارسو الأدب إلى هذه الحقبة على أنها تنطوي على دورين كبيرين هما: الدور المملوكي، والدور العثماني، فيقول جودت الركابي: "يقسم المؤرخون عادة هذه العصور إلى دورين: الدور المملوكي؛ ويبتدئ منذ سقوط بغداد سنة 656هـ إلى استيلاء العثمانيين على القاهرة سنة 923هـ وقضائهم على الخلافة العباسية فيها، والدور العثماني؛ ويبدأ سنة 923هـ/1517م حين استولى العثمانيون على القاهرة، وينتهي باستيلاء نابليون على مصر".[1]

وثمة ملاحظة أخرى فيما يخص تحديد نهاية هذه الحقبة؛ إذ يمكن أن نجد إشارة إليها في كتابات مؤرخي الأدب العربي الحديث، أو من تحدثوا عن أدب عصر النهضة والإحياء، فقد جعل هؤلاء أيضًا من الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م بداية حقبة الأدب الحديث؛ إذ يراه بعضهم تأثرًا مباشرًا بمظاهر التقدم التي حملها الغزاة، ورآه آخرون ردَّ فعل على هذا الغزو الجديد واستثارة لعوامل النهوض، فهؤلاء يجعلون من الحملة الفرنسية على مصر نهاية للحقبة السابقة وبداية للحقبة اللاحقة،[2] كما أنهم – أي مؤرخي عصر النهضة والإحياء – يُصرُّون على وصف العصر الذي سبق مرحلة النهضة والإحياء وانتهى بالحملة الفرنسية على مصر؛ بالجمود، والانحطاط، والتخلف، والظلام الفكري، وانهيار الحياة الأدبية، ولا سيما في الدور العثماني منه،[3] وفي أحيان معينة كان

---

1 الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص122 .

2 يُنظر: ضيف, شوقي, **الأدب العربي المعاصر في مصر**، (القاهرة: دار المعارف، ط 8، د.ت)، ص12 وما بعدها؛ سالم, عبد الرشيد, **مقدمات النهضة الأدبية وعواملها في مصر**، (مصر: مكتبة وهبة، ط2، 1981), ص11؛ هيكل, أحمد, **تطور الأدب الحديث في مصر**، (القاهرة: دار المعارف، ط5، 1978)، ص17, 25؛ الكتاني، محمد, **الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث**، (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1982)،ج1، ص22, 47, 48, 50, 52.

3 يُنظر: هيكل، **تطور الأدب الحديث في مصر**، ص17؛ سالم، **مقدمات النهضة الأدبية وعواملها في مصر**، ص10-11،؛ الكتاني، **الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث**، ص47؛ ضيف، **الأدب العربي المعاصر في مصر**، ص11-12.

الداعي إلى هذا الإصرار رغبة جارفة في إظهار معالم عصر النهضة، وجوانب التميز في أدبه، بإظهار نواحي الضعف والجمود والتدهور في أدب العصر الذي سبقه، مع ما قد يؤدي إليه ذلك من تعميمات جائرة، أو إهمال لأي ملمح من ملامح الجودة والإبداع الأدبي في ذلك العصر المترامي الأطراف.

## الإنجاز السياسي للمرحلة والأثر الثقافي

لا بُدَّ من القول إنه لا يمكن لأي باحث يتحلى بالحد الأدنى من الموضوعية؛ أن يتجاهل الإنجازات السياسية والعسكرية الهائلة التي قام بها المماليك ثم العثمانيون وتركت آثارًا كبيرة في الفكر والعلم والأدب، وعلينا أن نتذكر ههنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت مع البدايات الأولى لدولة المماليك في مصر والشام؛ تواجه خطر الإبادة الذي رأينا صورته المرعبة في بغداد، كما كانت تواجه أيضًا بقايا الصليبيين في بعض مدن الشام، فكان بلاء المماليك تجاه هذين الخطرين محمودًا وجهودهم حاسمة، مما وفَّر للثقافة العربية الإسلامية مناخ الاستمرار والبقاء ومواصلة العطاء، ويلخص ياسين الأيوبي – دارس شديد الحماس لهذه الحقبة – إنجازات المماليك في ثلاثة عناصر:

- إعادة الخلافة الإسلامية بعد سقوطها المدوي في بغداد بمبايعة المستنصر بالله أحمد على يد السلطان الظاهر بيبرس مع أنه تنصيب صوري ليس له أي قيمة فعلية.
- تعزيز الكيان العربي الإسلامي بتوحيد الأقطار العربية، ولا سيما مصر والشام.
- القضاء التام على خطري المغول والصليبيين.[1]

ومهما تحفَّظ أي باحث على تعداد هذه الإنجازات، ورأى في بعضها إنجازات شكلية لم يكن المقصود منها إلا إضفاء الشرعية على الحكم المملوكي كما هو الحال في إعادة تنصيب خليفة عباسي، أو رأى في بعضها الآخر إنجازات ناقصة كالقول

1 يُنظر: الأيوبي، ياسين، **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، (لبنان: الناشر جروس برس، ط1، 1995)، ص52.

بتوحيدهم الأقطار العربية، فإنه ليس بوسعنا أن نتجاهل الإنجاز الأهم في إيقاف الطوفان المغولي، وإنهاء الوجود الصليبي من البلاد العربية، والإبقاء على دولة مركزية قوية في قلب العالم العربي والإسلامي في مصر والشام ذات ثقافة عربية إسلامية خالصة، هذا مع ملاحظة ما قيل من كثرة المظالم والمآثم التي ارتكبها حكام المماليك في حق الرعية؛ لكن علينا أن نلاحظ هنا أن ياسين الأيوبي الذي عدَّد هذه الإنجازات بروح مكبرة ومعجبة كان يقتصر في الحديث على دولة المماليك فحسب من دون أن يتعدى بالحديث إلى الدولة العثمانية التي قلما وجدت مدافعًا عن الحياة الفكرية والأدبية فيها من قبل دارسي التاريخ الأدبي.

إن ظهور دولة المماليك مزامنة لانهيار الدولة العباسية، وسيطرتها على قلب العالم الإسلامي في مصر والشام؛ يكاد أن يكون ما حفظ الحضارة الإسلامية من خطر الزوال الوشيك الذي سببه الضعف المريع الذي تدهورت إليه الدولة العباسية، وكذلك عاصفة المغول الهوجاء التي دمرت حاضرة الدولة الإسلامية في بغداد، وكذا بقايا الإمارات الصليبية المتناثرة المتبقية من حروب الزنكيين والأيوبيين؛ إن هذا الظهور الذي بدأ قويًّا على يد المظفر قطز، ومن بعده الظاهر بيبرس، وهو أهم حاكم مملوكي على الإطلاق؛ أدى إلى حفظ الوجود في معركة كادت أن تكون معركة بقاء؛ إذ لم يكن الغزو المغولي ليكتفي بالهزيمة العسكرية مبقيًا على أسباب الحضارة والتمدن والثقافة، بل حاول أن يجتث الوجود الحضاري، وأن يدمر بضراوة الإنجازات الثقافية الكبرى التي أنتجتها جهود العلماء خلال القرون الستة الماضية، وهنا لا بُدَّ لنا من أن نقول إن كل الباحثين يكادون يُجمعون على هذا الدور الذي قام به المماليك، ومهما دار من جدل في مستوى ما قدمه العصر المملوكي ومقدار الجديد فيه من ثقافة وفكر، فإنه حقَّق هدفًا واحدًا لا جدال فيه، وهو الإبقاء على الثقافة والفكر العربي الإسلامي بقاءً كفل استمرار الحياة فيه، وأمدَّه بالقدرة على الإنتاج الثقافي والأدبي لتعويض الدمار الهائل الذي تعرَّض له الفكر الإسلامي نتيجة الهجمة المغولية؛ يقول جرجي زيدان واصفًا الحياة الثقافية العامة بعد سقوط بغداد: "ويقال بالإجمال

إن العالم الإسلامي مرت عليه ثلاثة قرون، وليس فيه دولة عربية تستحق الذكر، ولم يحكم العرب منه عُشر معشاره فلو ذهبت اللغة العربية في أثنائها واتَّحت آدابها لم يكن ذلك غريبًا، لكنها ظلت حية، ونبغ فيها الشعراء والأدباء والمؤلفون في كل فنٍّ، والسبب في ذلك أنها كانت لغة السياسة في معظم تلك الدول، ولغة الدين والعلم فيها كلها تقريبًا... على أن الفضل الأكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع إلى مصر والشام، وهما في حوزة السلاطين المماليك، ومن بقي من الملوك الأيوبيين، فقد كانتا الملجأ الوحيد لأبناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق... فنبغ فيهما معظم شعراء العصر المغولي..."،[1] وعلى ما يبدو لم يكن هناك شيء حفظ للشعر العربي والأدب رمقًا من الحياة إلا بقاء اللغة العربية مدار الثقافة، ولغة الإدارة في الدولة، ووسيلة التفاهم الأولى بين الناس وبين الحكام، فرغم أن المماليك لم يكونوا عربًا، بل هم أتراك وشركس وروم وغير ذلك، دفعهم التزامهم بالإسلام دينًا إلى الإبقاء على العربية لغة أولى؛ أي إنهم لم ينصرفوا – كما فعل العثمانيون في مرحلة لاحقة – إلى استبدال العربية بلغاتهم الأصلية، وهذا أهم ما أبقى الثقافة في عصر المماليك منتجة الأدب عربي بصرف النظر عن نوعية ما أُنتج، ومقدار الجديد فيه.

إن الأهوال والمحن التي مرَّت بها الثقافة العربية بعد نكبة بغداد، ومعارك البقاء التي خاضتها، وخضوع البلاد العربية باعتبارها بيئة هذه الثقافة لحكام من غير العرب، ثم خروج اللغة العربية بعد كل ذلك حية قادرة على العطاء؛ أصابت بعض الباحثين بالدهشة أمام قدرة هذه اللغة على الاستمرار والعطاء؛ لذا نجد هذه الدهشة بادية على تعابير المؤلفين كما رأينا مع جرجي زيدان وأحمد حسن الزيات الذي تحدث عن خمسمئة أو ستمئة عام أخيرة، وكيف تداول السلطة غيرُ العرب، ويظهر دهشته من بقاء اللغة العربية على رغم كل تلك الأهوال التي لاقتها الثقافة العربية على أيدي الحكام من غير العرب، فيقول: "فلو أن الزمان عفا على اللغة

1 زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، ص123.

العربية، وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بدعًا من القول، ولا حدثًا في التاريخ، ولكنها بقيت على مرغمة الحوادث لسانًا للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة، ولولا نعرة الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة"،[1] وهو يعيد سبب ذلك إلى القرآن والأزهر وإلى جهود سلاطين الأيوبيين والمماليك، ومن اللافت للنظر هنا أن الزيات يقع –كآخرين – في شيء من الاضطراب في تقييمه المنجز الثقافي والأدبي لهذه الحقبة، فهو من جهة يرى أن العصرين الأيوبي والمملوكي أبقيا على اللغة العربية وعلومها وآدابها قوية مزدهرة، وأنهما قدَّما جديدًا للثقافة العربية الإسلامية من خلال أعمال بعض العلماء والأدباء، وهو يطيل في تفصيل ذلك، وفي تعداد أسماء الأدباء والعلماء التي رآها أمثلة لتميز الفكر والأدب في هذه الحقبة،[2] حتى إذا كدنا أن نستبين رؤيته هذه الحقبة وتميزها، وأوشكنا على تصنيفه كأحد الذين احتفوا بإنجازات أدبها وفكرها وتمجيده أدباءها وشعراءها؛ إذا به يعود مرة أخرى إلى القول إن كل ذلك لم يكن كافيًا لإنهاض اللغة من عثرتها الكبيرة، فيقول: "ولكن هؤلاء أفراد تقسَّمتهم الأعصر، فلم يستطيعوا إنهاض اللغة الثكلى، وقد كبت بينيها الجدود العواثر، فامَّحت [في] الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس، وبقيت [في] مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد ونقت عليه المنية، ولم يبق فيه إلا الذماء".[3]

## تسميات المرحلة الأدبية (الأسماء والأحكام)

نجد عند من أرخوا لأدب العصرين المملوكي والعثماني اختلافًا في التسميات التي أطلقوها عليهما، وفي كل اسم نجد ظلاًّ لحُكم قاطع أو نسبي على الإنتاج الفكري

1 الزيات، أحمد حسن، **تاريخ الأدب العربي**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط 42، د.ت)، ص401.

2 الزيات، **تاريخ الأدب العربي**، ص401، فقد ذكر أسماء يطول المقام بنقلها من علماء وأدباء ما تزال كتب بعضهم مرجعًا مهمًّا للدارسين والباحثين إلى يومنا هذا، ويلفت النظر في من عددهم أن منهم أمراء وسلاطين من المماليك أنفسهم.

3 المرجع السابق، ص402.

والأدبي للمرحلة، غير أن تأثير سقوط بغداد وغزو المغول كان في أشد درجات وضوحه على تقييم هذه الحقبة عند جرجي زيدان الذي أطلق مصطلح (العصر المغولي) على عصر ما بعد سقوط بغداد حتى ظهور الدولة العثمانية، متجنبًا استخدام مصطلح (العصر المملوكي) الذي شاع استخدامه بكثرة، هذا مع ملاحظة أن جرجي زيدان في تحديده لقسمي هذا العصر، يسمي المرحلة الأولى (العصر المغولي)، بينما يسمي المرحلة الثانية (العصر العثماني)؛ يقول: "العصر المغولي 656-922هـ... يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول على يد هولاكو سنة 656هـ، وينتهي بدخول العثمانيين مصر على يد السلطان سليم الفاتح سنة 923هـ، وكان العالم الإسلامي في أثنائه أكثره في سيادة المغول سلالة جنكيز خان، أو هو انقسم إلى ثلاثة أقسام بين المغول والأتراك والعرب..."،[1] وهنا لا بُدَّ لنا من أن نتساءل عن إصرار جرجي زيدان على تسمية الدور المملوكي (المغولي)، مع أن المد المغولي وإن استطاع أن يُسقط الخلافة العباسية في بغداد، وأن يُربك الحركة العلمية والفكرية والأدبية بتدميره كنوز الثقافة والفكر العربي في مكتبات بغداد؛ لم يصبغ العصر بعده بصبغته، ولم يكن للتراث الفكري والأدبي بعد غزو المغول آثار حضارية واضحة للثقافة المغولية – هذا إذا كان هناك ثقافة أو حضارة مغولية – بل إن العكس ما حدث، فالثابت تاريخيًّا أن المغول نتيجة فقرهم الحضاري ذابوا في الخضم الإسلامي واستوعبتهم الحضارة الإسلامية، بل إن التاريخ يثبت أن استجابة المغول للتأثير الحضاري الإسلامي، ودخول بعض ملوكهم في الإسلام حدث في وقت مبكر جدًّا بُعيد نكبة بغداد بقليل من السنين[2]، فكيف يسوغ بعد ذلك أن يُسمَّى هذا العصر (العصر المغولي) في تجاهل تام لكل الأثر الثقافي الذي تركته دولة المماليك على الحياة الأدبية والتراث

1 زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، ص121.

2 دخل بعض ملوك المغول الإسلام حتى قبل سقوط بغداد؛ يُنظر: عاشور, فايد, **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى**، (القاهرة: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ط1، 1976)، ص75.

الفكري – أيًا كان هذا الأثر – ولا سيما أن دولة المماليك بقسميها "البحرية" و"البرجية" احتفظت بقلب العالم الإسلامي مُوحَّدًا وقويًّا في مصر والشام واليمن وأطراف العراق.

وبينما نجد أن بعض الباحثين استعانوا بمفردات التاريخ السياسي فلم يتعدوا في تسميتهم هذه المرحلة أن يطلقوا عليها مسمى التاريخ السياسي لكل حقبة، فسموها (العصر المملوكي) و(العصر العثماني)، كما فعل شوقي ضيف حين سمى هذين العصرين – وغيرهما — (عصر الدول والإمارات)؛ جريًا على عادته في التحقيب الأدبي مستخدمًا التاريخ السياسي، وكما تبعه في ذلك عمر موسى باشا في كتابه (أدب الدول المتتابعة) جاعلاً من العصر المملوكي أحد هذه الدول إلى جانب عصري الزنكيين والأيوبيين، وكما فعل أيضًا في كتابيه (الأدب العربي في العصر المملوكي) و(الأدب العربي في العصر العثماني)، وكما فعل محمد زغلول سلام في كتابه (الأدب في العصر المملوكي)، وياسين الأيوبي في كتابه (آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي)؛ نجد بعضًا آخر ممن فضل وصفًا صارمًا يسم به المرحلة وينعتها به، نجد ذلك مثلاً عند جودت الركابي الذي أطلق على العصرين المملوكي والعثماني (عصر الانحطاط أو الانحدار)، فيقول: "إن بلاد الشام ومصر خضعت في أول عصور الانحطاط لسلطة المماليك، ثم لسلطان العثمانيين... وقد لاقت هذه البلاد خلال هذه العصور من الحروب والمحن وتفاقم العناصر الأعجمية واستبدادها بالأحكام والأفكار ما كان له أثر بليغ في تخدير العقول، وتدهور العلوم والآداب"،[1] وفي هذه التسمية إشارة قوية إلى سمة الضعف والجمود التي رآها بعض الباحثين في الإنتاج الأدبي لهذه المرحلة، لكن مقولة (عصر الانحطاط) التي قال بها أغلب مؤرخي الأدب تصريحًا أو تضمينًا تجد عند محمد لطفي اليوسفي رفضًا ونقدًا؛ لا من جهة تخطئته مبدأ أن الشعر العربي تلبَّس في هذه الحقبة بسمات الضعف والجمود والعقم، ولكن من جهة أن مصطلح (عصور الانحطاط) مصطلح مضلل يوهمنا بأن

1 الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص120, 124.

الشعر العربي دخل فجأة في هذه المرحلة، وأصبح بغتة ومن دون سابق إنذار ينوء بأثقال البديع والصنعة، ويشيع فيه الجمود والتكرار في المعاني، ثم وقف على حافة الهاوية وسقط، ولأن هذا المصطلح يحجب عنا حركة الشعر الطويلة ومسيرته نحو الانكفاء والتلاشي، فيقول في هذا المعنى: "واضح إذن من خلال ما تقدم أن أزمة الشعر ومآزقه التي أدت إلى وهنه وانكفائه وتلاشيه لم تبدأ في المرحلة المصطلح على تسميتها بـ(عصور الانحطاط)، ولم تشرع في التشكل في تلك الحقبة؛ أي بعد وصول العثمانيين إلى الحكم، وهذا يعني أن الحديث عن عصور الانحطاط باعتبارها مجمع الويلات والمحن والتراجعات موقف في غاية التبسيطية، فلا وجود لعصور انحطاط محددة في التاريخ، بل هناك سيرورة انحطاط رعت في التشكل، وأخذت تستكمل شروطها قبل هذه المرحلة بكثير"،[1] ويخلص اليوسفي بعد دراسة معمقة إلى أن الانحطاط كان سيرورة طويلة ومتراكمة لها بدايات مبكرة جدًّا في الشعر العربي ولذا، فإنه ينادي بتبديل مقولة (سيرورة انحطاط الشعر) بتسمية (عصور الانحطاط)،[2] ويرى أن هذا التصور "ليس مجرد زحزحة للتسمية أو مجرد توسيع للمدى الزمني الذي تشير إليه هذه التسمية، بل هو تصور يهدف إلى الإفلات من سلطة المسلمات والبداهات لإعادة النظر في الأسباب التي أوقفت الشعر على الشفا الخطير، وافتتحت تاريخ انكفائه وأفوله...".[3]

وإذا عدنا إلى ما سبق أن ذكرناه من أوصاف وتسميات أطلقها الباحثون على هذه الحقبة الأدبية المديدة، وجدنا أنها فوق ما تشير إليه أحيانًا من أحكام جازمة أو مترددة انتهى إليها أولئك الباحثون في الحكم على أدب المرحلة شعرها ونثرها؛ تشير كذلك إلى مدى ارتباط الأدب العربي بعامة، والشعر بخاصة بالحُكام والسياسة؛ إلى حد أنه لم يصنع لنفسه تاريخًا مستقلاً تحمل مفاصله ومراحله سمات مميزة تؤطر كل مرحلة على

1 اليوسفي، محمد لطفي، **فتنة المتخيل**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2002)، ج1، ص72.
2 المرجع السابق، ص155.
3 المرجع نفسه.

حدة؛ لذا نضع جريرًا والفرزدق في شعراء العصر الأموي، ونضع أبا تمام في شعراء العصر العباسي الأول، ونضع المتنبي في شعراء العصر العباسي الثاني، ونضع صفي الدين الحلي في شعراء العصر المملوكي، وكما ينطبق هذا الأمر على التاريخ الشعري العام، فإنه ينطبق على كذلك التاريخ القطري أو الإقليمي للشعر فنحن نجعل ابن زيدون من شعراء عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ونجعل الستالي من شعراء العصر النبهاني في عمان، وهذا النوع من التقسيم السياسي للشعر لا يلقي بالاً لجملة التطورات والتغيرات التي تحدث في عمق الحالة الشعرية وتميز أساليب الشعراء وأغراضهم ومعانيهم وأخيلتهم ولغتهم وموسيقا القصيدة وبنيتها، والتي تكفي عند الرصد الدقيق لمظاهرها لإعادة تقسيم العصور الشعرية والأدبية بما يجعل هذه التحولات في الحسبان؛ بدلاً من أن نحيل التاريخ الأدبي على كتل من الحقب السياسية التي تجعل الشعر تبعًا لتغير السلالات الحاكمة؛ بل إن هذا المنهج في التحقيب يغذي مقولة القائلين إن تاريخ الفكر والثقافة العربيين تاريخ طولي ممتد لا يعرف الفروق والمميزات بين مراحل وحقب تشهد تطورًا يحدث في بنية الثقافة والفكر والأدب، وهو ما قد يبرر لبعضهم قوله إن الثقافة العربية راكدة وجامدة ليس لحقبها مميزات وملامح واضحة؛ لذا تفزع إلى التاريخ السياسي عند دراسة تاريخ الأدب والفكر؛ لأنها لا تجد وسيلة أخرى.

وبالإضافة إلى ذلك لا بُدَّ من القول إن كل تلك التسميات مع ما ورائها من رؤى تسوِّغها، تحيل على نظرة تقسم العالم العربي والإسلامي إلى مركز وأطراف، وأن المركز لا يعدو أن يكون قطرين أو ثلاثة هي مصر والعراق والشام، ولا سيما بعد سقوط بغداد، وهذا المركز في نظر هؤلاء مرجع كل هذه التحولات، وهو مآل الحكم على الحالة العامة بكل مستوياتها السياسية والاجتماعية والأدبية، وأن محددات المسار كلها لا تتعدى هذه الأقطار إلى سواها، مسقطة من حسبانها كل ما تؤول إليه الأمور في الأطراف من حراك وتغيير، باعتباره مجرد صدى تابع لما يجري في المركز؛ ولئن صح هذا الأمر على بعض ما سمي (الأطراف) التي ربطت مصيرها بالمركز على امتداد تاريخها، فإنه لا يصح على

أقطار أخرى اتجهت إلى تجذير تميزها واستقلالها منذ البدايات الأولى للتاريخ الإسلامي، من دون أن يعني ذلك قطع صلتها بما يجري في قلب العالم الإسلامي، ولكنها أخذت زمام مصيرها بأيدي شعوبها بعيدًا عن نفوذ المركز، كما كانت عليه الحال في الأندلس مثلاً بعدما كان لها مسارها الفكري والأدبي المؤثر منذ بدأت دولتها المستقلة على أيدي الأمويين، والمثال الآخر على هذه الحالة المزدوجة من الترابط والاستقلال في آن معًا عُمان التي أصرت منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري على الاستقلال السياسي، وعلى خط مميز من السمات الثقافية الخاصة، مما ترك أثره الطبيعي على التاريخ السياسي والاجتماعي المحلي، وكان له أثره الواضح كذلك على مستوى الأدب والفن كذلك، وإن لم يكن هذا مجال تفصيل هذه التأثيرات.[1]

## الحياة العلمية والفكرية للمرحلة وأثرها على تقييم الأدب

ربما كانت تلك الرؤى المتضاربة في النظر إلى الحياة الفكرية والأدبية لهذه المرحلة ترجع إلى تلك المفارقة التي يمكن ملاحظتها بين الحياتين الفكرية العلمية من جهة، والأدبية من جهة أخرى، في الحال الذي وصلت إليه في هذه المرحلة، ففي حين أتمت الحركة الفكرية والعلمية إنجاز جملة من أهم منجزاتها في نهايات دولة الأيوبيين وبدايات عصر المماليك؛ كانت مظاهر ما سمي لاحقًا (التصنع والتكلف اللفظي) آخذة في الظهور والشيوع والتطور في الأدب على أيدي أعلام كبار كالقاضي الفاضل والعماد الكاتب؛ لتصبح تدريجيًّا مع مضي الوقت سمة غالبة ولازمة من لوازم الأدب والشعر في العهدين المملوكي والعثماني، ومن هنا يمكنني أن أضيف إلى ما سبق ذكره من أسباب الاضطراب في تقييم المنتج الثقافي لهذه الحقبة سببًا آخر، يمكننا أن نراه حين نفهم أن

1 حول أثر الاستقلال السياسي والثقافي على الحالة الأدبية والشعر في عمان؛ يُنظر: الحجري, محمد، **الشعر العماني في العصرين النبهاني واليعربي، إشكالية الإبداع والاتباع**؛ الحجري, محمد، **الشعر العماني في العصر البوسعيدي**؛ دارسة فنية تحليلية.

هذه الحقبة في حد ذاتها مضطربة أصلاً، وعلى أكثر من صعيد، ويمكن أن يتلخص ذلك – سياسيًا على الأقل – في أنها مرحلة هزيمة كاسحة، ومرحلة انتصارات ضخمة في ذات الوقت، وهي تكاد أن تكون نهاية الصعود، وبداية الهبوط، ومن هنا يمكن أن يرى فيها الباحثون علامات متناقضة تدل على الشيء ونقيضه في الوقت ذاته، هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من أنها مرحلة نضجت فيها الجهود العلمية السابقة، وانتهت فيها إلى نتائجها الضرورية وثمارها المؤكدة، بينما شهدت الحياة العلمية الثقافية بدايات التراجع والسقوط في هوة التكرار والاجترار، كما يمكننا أن نرى سببًا آخر لهذا الاضطراب في تقييم هذه المرحلة في أن بعض الباحثين –كما فعل الزيات مثلاً – لا يفصلون بين عصري الأيوبيين والمماليك، ويتعاملون معهما على أنهما حقبة واحدة، وربما يعود ذلك إلى فكرة مفادها أن المماليك ليسوا إلا موالي للأيوبيين، وهم الذين مهدوا لهم الطريق لتولي مقاليد الأمور، وقد يعود ذلك إلى أنه من الصعب الفصل في الدراسات الأدبية – وهي ما تعنينا هنا – بين عصر وآخر على أساس سياسي فحسب كتغير السلالات الحاكمة مثلاً، فقد تمتد ظاهرة أدبية – شعرية أو نثرية – لعصور عدة وأوضح مثال على ذلك ظاهرة الصناعة اللفظية التي يشير الباحثون إلى بداياتها في القرن الرابع الهجري، لتترسخ في العصر الأيوبي على يد القاضي الفاضل، ثم ليشيع استخدامها وتتوسع في عصر المماليك وما بعدهم، كما أكد ذلك شوقي ضيف ومن قبله جرجي زيدان.[1]

1 مع أن بعضهم يرجع شيئًا من مظاهر الجمود في الحياة الأدبية إلى مرحلة أبكر من نهايات عهد الأيوبيين وبدايات عهد المماليك, من مثل جرجي زيدان عند حديثه عن الحياة الأدبية في القرن الرابع الهجري, فقد لاحظ أن إرهاصات الصنعة والتأنق اللفظي آخذة في التشكل في ذلك الوقت المبكر، وفي فترة سابقة على العصر المملوكي، فهو يقول عن أدباء العصر العباسي الرابع (القرنين الأخيرين من الدولة العباسية) إن "رغبتهم في إتقان التأليف بعثتهم على إتقان الصناعة اللفظية والتفنن في البديع والجناس, فوضعوا علم البيان أو دونوه وضبطوه حتى صار علمًا قائمًا بنفسه، وأتقنوا المقامات أيضًا وهي من قبيل الصنائع اللفظية، ويقال على الإجمال أن الإنشاء أو الترسل مال في هذا العصر إلى التأنق في اللفظ أكثر مما كان في العصر السابق"؛ يُنظر: زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، 12.

وهنا يمكن القول إنه يصدر عن الباحثين على مختلف توجهاتهم في النظر إلى هذا العصر أمران مهمان: **أولهما** الاعتراف بالمنجزات العلمية والفكرية للعصر المملوكي على تفاوت بينهم في تقييم هذا المنتج العلمي الفكري ومستوى الإبداع فيه، **وثانيهما** التفريق بين الدورين المملوكي والعثماني اللذين هما قسيما هذه الحقبة في المدى الذي وصل إليه الضعف والجمود، ومردُّ ذلك إلى الطبيعة التدريجية الذي سارت عليها الأمور والتي لم تتصف بالفجائية والسرعة، فدارس مهم كجرجي زيدان يجمع هذين الأمرين بقوله: "إن التغيير السياسي والاجتماعي في العصر المغولي لم يظهر تأثيره في الآداب العربية إلا في أواخره، أما في أوائله فظهرت ثمار نضج العلم في العصور السابقة... أما في العصر العثماني فتمكن فيه الذل من النفوس، وفسدت ملكة اللسان، وجمدت القرائح"،[1] وجرجي زيدان يشير إلى أن التدهور السياسي الذي وصل ذروته بسقوط بغداد عام 656هـ/1258م؛ ترك تأثيرًا هائلاً في الحياة العربية في مستوياتها الفكرية والعلمية والأدبية، لكنه على المستوى العلمي والفكري على الأقل لم تظهر آثاره المباشرة إلا بعد حين؛ إذ استمرت الحركة العلمية في عطائها وإن بصورة مختلفة حيث ظهرت حركة التأليف الموسوعي، وأكملت بعض العلوم مسيرتها رغم النكبة الهائلة، لتنضج ثمارها كما حدث في علمي التاريخ والعمران الذي نضج على يد ابن خلدون، وكما حدث للعلوم السياسية والإدارية والعسكرية إذ وُضعت لها الكتب وضبطت قوانينها ونظمها،[2] لكن هذا الأمر ما كان له أن يستمر طويلاً؛ إذ لم يكن بوسع هذه العلوم أن تستمر في تقدمها في ظل هذه الأجواء الكئيبة، فظلت تدور حول نفسها، وتعيد إنتاج معارفها السابقة عبر التأليف الموسوعي، وعن طريق الشروح والحواشي والمناظيم والمختصرات.

1 زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، ص291.

2 المرجع السابق، ص123 .

والحقيقة أن تطور الحركة الفكرية العلمية على هذا النحو، واتجاهها نحو هذا النمط من التأليف شد أنظار كثير من الباحثين، فالعصر المملوكي عصر التأليف الموسوعي كما يراه كثيرون،[1]

ويسوق بعض الباحثين أسبابًا عدة للحركة النشطة للتأليف الموسوعي في عهد المماليك من أهمها تعويض الخسارة الهائلة التي نكب بها المغول الفكر العربي والإسلامي في بغداد؛ "لذلك نشطت حركة التأليف، وكثرت المؤلفات الجامعة، ولا سيما بعد إقفار البلاد من الكتب إثر نكبات المغول وتدمير المدن والمكاتب فحفزهم هذا إلى إحياء المدارس والتعويض عما فات"،[2] ويرى ياسين الأيوبي أن هناك دافعين مهمين أسفرا عن هذه الحركة الموسوعية: **أولهما** دافع داخلي تمثل في شعور المفكر في العصر المملوكي، بأنه وريث ثقافة ضخمة تعاورت عليها الأحداث والمحن متمثلاً بسيل المغول القادم من الشرق وكذا في اضمحلال دولة الأندلس وتقلصها بعد أن كانت منارة العلم، **وثانيهما** دافع خارجي تمثل بتلبية رغبات السلاطين والأمراء بتأليف الكتب ووضع الدواوين والمصنفات العلمية، إما سعيًا للشهرة وإما تحقيقًا للثروة.[3]

ووفق هؤلاء لم تكن هذه النزعة الموسوعية لكتاب وعلماء هذا العصر مجرد رغبة في الجمع، وتكديس المادة العلمية، وإعادة تبويبها وإخراجها لطلاب العلم والمعرفة، بل كانت أيضًا نتيجة للشعور المتعاظم بالخطر على الثقافة العربية بعد نكبة بغداد على يد المغول، وما خسره الفكر العربي من نفائس المؤلفات والكتب في تلك الكارثة، وفي غيرها من الحروب التي تلتها، فهي حسب رأيهم رغبة في التعويض عن ذلك الهدر الثقافي الهائل الذي جرى للثقافة العربية، ومع ذلك فأني

---

1 يقول جرجي زيدان: "تكاثرت الموسوعات، والكتب الجامعة للموضوعات المتعددة في هذا العصر حتى يصح أن يسمى (عصر الموسوعات والمجاميع)", المرجع السابق، ص241.

2 الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص129. ويُنظر: بلاشير، رجيس، **أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي**، ترجمة إبراهيم الكيلاني، (الجزائر: دار الفكر، ط1، د.ت)، ص492-493.

3 يُنظر: ياسين الأيوبي، **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، ص74.

أرى أن هذا التعليل لا يصلح في كل أقاليم البلدان الإسلامية؛ إذ لم تتعرض كلها إلى خطر وشيك مدمر كما هوو الحال في العراق والشام؛ لذا فإن هذا التعليل لا يكفي لشرح أسباب هذا التوجه.

ومع اعتراف كثير من الباحثين بهذا النشاط المعرفي الذي شهده العصر المملوكي بخاصة نجد أن عددًا منهم يشكك في جدواه ونفعه، ويثير شكوكًا كثيرةً حول نسبة الجديد فيه؛ إذ ينقل عمر موسى باشا عن قسطنطين زريق مثلاً قوله: "... ثمة إنجازات في حقل العلم، وخاصة في الطب والتاريخ والإدارة والموسوعات الأدبية، لا يسمح لنا المجال هنا بتفصيلها، ولكن لا بُدَّ من القول إن هذا الإنتاج على ضخامته، لم يتميز بالابتكار والإبداع، لقد حفظ لنا التراث السالف، وفصله، وأضاف إليه هنا وهناك، واختصره ونظمه، ولكنه لم يخرج عن قواعده، بل ظل مقلدًا له، ومحصورًا في نطاقه"،[1] ومع أن عمر موسى باشا يدافع عن هذا العصر بقوة ويعده عصر دوائر المعارف الذي شهد ولادة دوائر معارف لا تزال إلى اليوم ذات تأثير كبير في الفكر والثقافة العربية، من مثل: (معجم البلدان) لياقوت الحموي (626هـ)، و(نهاية الأرب) للنويري (677-733 هـ )، و(مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري (700-749 هـ )؛ يرى أن دوائر المعارف هذه كانت عالة على دائرة معارف واحدة هي (لسان العرب) لابن منظور الأفريقي.[2]

ويتساءل جودت الركابي مثلاً عن قيمة هذا الإنتاج الغزير قائلاً: "ولكن ما قيمة هذه الكتب الكثيرة التي ظهرت في أوائل عصور الانحدار؟ أهي كتب قيمة ذات أصالة أم هي كتب لا إبداع فيها ولا أصالة ولم تساعد على دفع عصرها في معارج التقدم والنهضة ؟"، ثم يصل بعد نقاش مستفيض لطبيعة الإنتاج المعرفي لهذه الحقبة إلى أن

1 موسى باشا، عمر، **تاريخ الأدب العربي؛ العصر المملوكي**، (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط2، 2004)، ص62.

2 يُنظر: المرجع السابق، ص80.

"صفوة القول أن أكثر مؤلفات عصور الانحطاط لم تعن بالجدة وبخدمة المعرفة الأصيلة، وإنما اهتمت بالنقل والجمع والتجسيد في الكتب، وهي كثقافة كتبية جامعة مفيدة نافعة حفظت لنا كثيرًا من المعارف المشتتة في الكتب... أما المعرفة الحية فكانت ضئيلة إن لم نقل مفقودة... فالسمة المميزة لمؤلفات هذه العصور هي التكديس والغموض والتعقيد مع شلل الفكر النقدي، ومن الإنصاف أن نقول إن هذا الشلل كان واضحًا في الإبداع، ولكنه استعيض عنه، كما قلنا بهذه الوفرة من المؤلفات".

كما لاحظ عدد من الباحثين أن قسيمي هذه الحقبة، العصر المملوكي في بداياته بخاصة، والعثماني؛ ليسا سواء في أحوالهما العلمية والفكرية والأدبية، فنجدهم يقدرون للعصر المملوكي ولبداياته خاصة الإنجازات الكبرى التي تحققت فيه في مختلف نواحيها مع إشاراتهم الخفية أو الصريحة إلى أنه بداية التراجع.

## الجمود والانحطاط في الأدب بين الرفض والقبول

توجه تيار واسع من الباحثين ومؤرخي الأدب إلى الحكم على هذه الحقبة المضطربة من التاريخ العربي والإسلامي بالجمود والضعف والانحطاط حين رأوا أن مظاهر الاضطراب والضعف تجاوزت الأحوال السياسية لتشمل كل مناحي الحياة الفكرية والأدبية؛ غير أن هذا المنهج الذي يجنح إلى التعميم والقطع نال نقدًا شديدًا من جانب جملة من الباحثين الذين رأوا في صدور أحكام عامة على هذه الحقبة تسمها بالضعف أو الجمود أو الانحطاط تعميمًا جائرًا يُطلق مقطوعًا عن حيثياته وأسبابه، ويرون فيها تجاوزًا لكثير من التفاصيل المهمة، وتجاهلاً لعدد من إشارات الحياة والقوة والعطاء التي لمعت في بعض أحيان هذا العصر، ولا سيما في الدور المملوكي منه.

ومن الملاحظ أن عددًا من هؤلاء الباحثين يبدؤون دراساتهم بتوجيه نقد لاذع للأحكام الشائعة التي رأوا فيها صرفًا للناس عن دراسة حقبة مديدة من تاريخ الأدب العربي تمتد لستة قرون لمجرد أنها قرون توصف بالجمود والانحطاط والضعف، نجد ذلك

مثلاً عند محمد زغلول سلام؛ قال: "وكلا الأمرين أي قلة الدرس والإهمال، وجور الأحكام أو عدم انطباقها تمامًا على الواقع جعلت المثقفين، وطلاب الأدب ينطبعون على أحكام ناقصة وتصورات غير واضحة عن هذا الأدب وعصره"،[1] أما بكري شيخ أمين فقد كان عنيفًا في نقده للدارسين الذين وصفوا هذه العصور بالضعف والانحطاط، وأعتبر ذلك ظلمًا جليًا، فسره بمؤامرة مقصودة لصرف دارسي الأدب عن هذه العصور المتخمة بالإنجازات –كما يراها هو – فيقول: "ويخيل إلينا أنه ما من عصر من عصورنا الأدبية أصابه من الظلم في الأحكام، والإهمال في الدراسات، ما أصاب هذا العصر وناله، وأكثر من هذا اعتقادنا الجازم أن هناك عملية خفية تهدف إلى صرف الباحثين عن دراسة هذه الحقبة والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها"،[2] لكننا رأينا شيخ أمين بعد ذلك يخفف كثيرًا من غلوائه وحدة نقده مناقضًا لموقفه السابق، بل يقترب في موضع لاحق من كتابه إلى حد التماهي مع هذه الأحكام، والاكتفاء بالعتب على أنها وردت غفلاً من حيثياتها وتفاصيلها، فيقول: "اعتاد أكثر مؤرخي الأدب والباحثين على وصف العصور التي تلت نكبة بغداد بالضعف الثقافي، والانحطاط الأدبي، والانهيار الفكري... ولسنا نعتقد أن هذا الحكم في جملته غير صحيح، ولكننا نرى أنه يحتاج إلى بيان، وتوضيح، وتفصيل"،[3] ولكنا حين نستعين بمزيد من التأمل لكلامه، نجده في ثنايا هذا التوضيح والتفصيل لا يختلف كثيرًا عما يقوله من جزموا منذ البداية بانحطاط هذه المرحلة وضعفها وهبوط الخط الحضاري للحضارة الإسلامية فيها، فنحن نجده مثلاً عند تحليله لأسباب بقاء الشعر وتواصل مسيرته يعد أسبابًا هي بعينها تأكيد للمقولة الرائجة حول طبيعة المرحلة، فيقول: "ومنها (أي من أسباب بقاء الشعر) السطحية، والسهولة بل والركاكة التي انحدر إليها الشعر، فنحن لا نجد بين تلك الأسماء اللامتناهية شاعرًا مثل

1 سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر المملوكي**، (القاهرة: دار المعارف، ط1، 1971)، ج1، ص5.

2 شيخ أمين، بكري، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980)، ص1.

3 شيخ بكري، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**, ص56.

قمة من القمم، كما نجد في العصور السالفة، بل ما أشبه تلك الكثرة بالسفح تنتشر فوقه آلاف من الحصى تتشابه في جوهرها، كما تتماثل في شكلها وحجمها".[1]

وباحث آخر هو ياسين الأيوبي الذي محض كتابه "آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي" للحديث عن أدب هذه المرحلة، وكان من الذين انتقدوا تعامل الباحثين مع أدب هذه الحقبة حين وصف العصر المملوكي في مقدمة كتابه بأنه "بقي يعاني من زيف التقويم وإصدار الأحكام السطحية التي جعلت منه صناعة لفظية تزويقية، خاوية الوفاض، واهنة الجدوى... فصرفت الأجيال عن النظر في هذا العصر وأدبه... حاذفة من كيانها حقبًا تاريخية ونتاجًا علميًّا وذخيرة أدبية هي من أهم ما خلفه العقل العربي في تاريخه الطويل"،[2] غير أن ياسين الأيوبي، وهو يصف أحكام مؤرخي الأدب عن هذه الحقبة بالجور والارتجال والافتقار إلى أبسط قواعد النقد والتمحيص،[3] يتبنى منهجًا متطرفًا آخر في التعامل مع أدب هذه الحقبة إذ يُقرُّ في مقدمة كتابه أن من أهداف دراسته "إثبات عكس ما هو شائع عن هذا العصر وأدبه، أي رسم صورة زاهية الألوان، مشرقة القسمات، ولو أدى بالأمر إلى شيء من المغالاة في الشرح والتعليق، وقد أكون في موقفي هذا منحازًا بعض الشيء... وربما صدر عني في هذا الموقف، ردة فعل في وجه المغالين المتطرفين في الحكم على جماليات هذا الأدب وخلوه من أي أثر للإبداع"؛[4] إذن فهذه صورة أخرى من مواقف تعامل الباحثين مع أدب هذه المرحلة، دفعت إليها غيرة وحمية أدبية، حتى ولو كلف الأمر أن يتخلى الباحث عن بعض أساسات المنهج العلمي وتلبس ولو بشيء من الانحياز؛ إن هذا الشيء اليسير من الانحياز الذي رآه الأيوبي ضروريًّا للدفاع عن أدب المرحلة وشعرها سيدفع إلى الارتياب في النتائج التي سيتوصل

1 المرجع السابق, ص83 .

2 الأيوبي، **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، ص5.

3 المرجع السابق، ص9.

4 المرجع السابق, ص11 .

إليها لصالح أدب هذه المرحلة وشعرها، ولربما أدى إلى عكس النتيجة التي يتوخاها؛ إذ قد يدفع إلى مزيد من التشكيك في شعر المرحلة وأدبها، هذا عدا عن أننا وجدنا للأيوبي نفسه في ثنايا دراسته ما يصدق جزءًا من أحكام الذين قالوا بتهافت شعر هذه المرحلة وأدبها، على الأقل في مستوى ما اتسمت به بعض أغراض الشعر في هذه المرحلة من تقليد واتباع لمعاني السابقين، وهو ما أكده في بعض المناسبات.[1]

إن ما نجده عند ياسين الأيوبي من اضطراب نسبي في تقييم أدب هذه الحقبة، سنراه أيضًا عند غيره من مؤرخي الأدب أكثر وضوحًا، فشوقي ضيف مثلاً – وهو المؤرِّخ المشهور لتاريخ الأدب العربي – في كتابه "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" يُرجع الجمود المعنوي والعجز عن الإتيان بموضوعات جديدة ومعان مبتكرة إلى القرن الرابع الهجري أيضًا؛ يقول: "لا نصل إلى القرن الرابع حتى نحس بأن الشعر العربي جامد لا يتحول عن الموضوعات والمعاني القديمة... إذ ضل الشعراء طريقهم إلى تنويع أفكارهم إلا أن يلجؤوا إلى ألوان غريبة كالمبالغة، أو يستعيروا بعض الألفاظ من الثقافات، أما أن ينوعوا في موضوعاتهم، ومعانيهم فذلك شيء قلَّما دار في أذهانهم"،[2] لكننا نجده بعد ذلك ينحاز انحيازًا واضحًا لمنجزات العصر المملوكي، ويرى أن مصر في عصر المماليك استعادت دورها الذي كان لها أيام الفاطميين وأحيته، وأن المماليك سجلوا لمصر صفحة زاهية في أيامهم مثلتها منجزات فنون العمارة الماثلة حتى الآن، ومثلتها كذلك عنايتهم بالعلم، وما أنجز في عصرهم من المؤلفات المهمة، ومع أنه يرى كما أوضحنا سابقًا أن صورة من صور الجمود أصابت الشعر العربي ابتداءً من القرن الرابع، واستمرت بعد ذلك، وأنها تمثلت في جدب المعاني، وقلة الابتكار فيها، نراه هنا يجزم بأن دفعة هنيئة تحققت للشعر في الفكاهة والدعابة، وما دبّ فيه من روح هازلة ضاحكة في عهد

1 يُنظر: الأيوبي, **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، ص110.

2 ضيف، **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص293.

المماليك،[1] وهذا تباين يصعب تفسيره إلا إذا أحلناه على ما سبق أن ذكرته من تلك المفارقة بين أحوال الفكر، وأحوال الأدب في بدايات هذا العصر، أما ما رآه شوقي ضيف من أثر دفقة الدعابة والمرح الهنيئة فهو ما يحتاج لمزيد فحص ودرس لاكتشاف ما أحدثته من تغيير أو تعديل في خط سير الشعر العربي في تلك المرحلة.

ونجد مثالاً لعدم الرغبة في الخلوص إلى نتائج واضحة، والتأرجح بين تقدير أدب المرحلة وإكباره، وبين التسليم بالإضافة الضعيفة لأدب المرحلة حتى عند بعض الباحثين الذين اتجهوا بدراستهم إلى العصر العثماني حيث الظواهر أكثر جلاء وقوة، وقد وصلت إلى غاياتها مثلما نجد ذلك عند محمود سالم إذ يصف مآلات الحالة الثقافية قائلاً: "وكانت الثقافة محصورة في علوم اللغة والدين، وهذا ما جعل الأدباء يتعلقون بصورة الأدب القديمة، فكانت إضافتهم إلى الأدب قليلة قياسًا إلى كثرتهم، وطول زمنهم، ولم يتساو أثر البيئة، وأثر التراث في أدبهم على الرغم من أن مستجدات البيئة فرضت عليهم موضوعات جديدة، وأشكالاً تعبيرية مبتكرة، لكنهم عبروا عنها بطرائق التعبير التقليدية؛ مثل موضوع القهوة والتبغ والمخترعات الجديدة، ومثل الأناشيد التي دفع إليها التطور الموسيقي"؛[2] إذ بعد هذه العبارة التي نجده فيها مفسرًا لتراجع قدرة الأدب على تطوير أساليبه نجده يقول: "أراد الأديب العربي في العصر العثماني أن يجمع في أسلوبه الأصالة بالانتساب إلى التراث، والمعاصرة في الافتتان بالبديع، وصار في هذا الجمع علامة الإبداع والتفوق في الأدب".[3]

على أننا في الوقت ذاته نجد باحثين معتدلين في نظرتهم لأدب العصر، وفكره لم يجازفوا بالقول إن المرحلة كانت استمرارًا لصعود الخط الحضاري للحضارة العربية

---

1 يُنظر: المرجع السابق، ص500.

2 محمود سالم، محمد، **أدب الدول المتتابعة؛ الدولة العثمانية**، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط1، 2012)، ص418.

3 المرجع نفسه.

والإسلامية، بل هم يُسلِّمون أنها كانت مرحلة قلقة في مستويات مختلفة، وأنها لم تكن بالتأكيد مرحلة ازدهار، نجد ذلك عند باحث معتدل في نظرته للعصر من مثل عمر موسى باشا، فهو يقول بعد دفاع عن حيوية العصر وعظمته، ونقله لآراء الممتدحين لمنجزات العصر: "فهو ليس من عصور الازدهار، وليس من عصور الاندحار، وإنما هو مرحلة حرجة من تاريخ الأمة العربية، وقد استطاع أن ينقل للعصر الحديث التراث العربي الأصيل، على الرغم مما حل به من أحداث جسام".[1]

أما العصر العثماني فقلما وجد من الباحثين من انبرى للدفاع عنه، أو عدَّ شيئًا من إنجازاته، رغم أنها من غير شكٍّ لم تكن معدومة نهائيًا؛ لذا وُسم بأنه كان ذروة الانحدار ونهاياته، وهذا التقدير المتحفظ الذي وجده الإنتاج الفكري والأدبي للعصر المملوكي مقارنة بالعصر العثماني كان نتيجة لبعض العوامل، ومن أهمها احتفاظ اللغة العربية بمكانتها السابقة من دون تغيير – على الأقل في المستوى الرسمي – في العصر المملوكي، فقد ظلت هي لغة الثقافة والفكر والعلم، وهي كذلك لغة الدواوين العامة، ولم تنافسها أي لغة أخرى أجنبية عنها كما حدث بعد ذلك في الدور العثماني مما واصل جهود درسها والتأليف فيها حيث "تكاثر الاشتغال في اللغة، وعلومها في هذا العصر، وإن كان أكثر اشتغال علمائها في الشروح"،[2] وإن تواضع مستوى عطاء الفكر واللغة مقارنة بالعهود السابقة، فإنه ظل أفضل بكثير من العصر العثماني.[3]

---

1 موسى باشا، **تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي**، ص37, ويُنظر ما نقله مِنْ أقوال مَنْ تحدثوا عن هذه الحقبة من أمثال: طه حسين, وبلاشير, وأندري ميكال, وشوقي ضيف, وغيرهم.

2 زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، ص151.

3 أشرنا من قبل إلى ذلك، وإلى ما عُرف من العناية النسبية لحكام المماليك باللغة العربية, وإن شكَّك بعضهم في دوافع ذلك، وقد عدَّد الركابي أسباب هذه الرعاية, وذكر منها أنهم لم يكونوا يتوارثون الملك؛ لذا سعوا لتخليد مآثرهم، كما ذكر أسبابًا أخرى لازدهار الحياة العلمية في القاهرة حينها؛ يُنظر: الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص127.

ويرى جرجي زيدان أن هناك أسبابًا عدة لهذا التفاوت بين حال الفكر واللغة في العصر المملوكي وتدهور حالهما في الدور العثماني، فيقول: "والآداب العربية أرسخ قدمًا في عهد المماليك (من العهد العثماني) لأسباب كثيرة أهمها:

– أن السلاطين المماليك كانت عاصمتهم مصر، وهي قلب العالم العربي.

– أن المماليك جعلوا اللغة العربية لغة الحكومة، وبها يتكاتبون ويتخاطبون ويُصدرون المنشورات والأوامر... وكانوا يأخذون بناصر العلماء والأدباء ويستقدمون القراء والمحدثين من الأطراف... أما العثمانيون فكانوا يُقرِّبون العلماء وينشطونهم أحيانًا، لكنهم احتفظوا بلسانهم التركي للمخاطبات والمخابرات وسائر المعاملات.

– أن بُعد العاصمة (الأستانة) أخاف السلاطين على ولاياتهم العربية، فجعلوا أساس الإدارة فيها التفريق بين رجال الحكومة بحيث لا يخشى اجتماعهم على الاستقلال، فآل ذلك إلى فساد الحكام و زيادة المظالم".[1]

ومن الواضح أن الحياة الفكرية العربية الإسلامية كانت تسير بداية من هذا العصر في خط هابط، وإن قيل عن العصر المملوكي إنه بداية التراجع، فقد كانت بداية على كل حال تحمل بعض ملامح الضعف والجمود، وتحمل بعض علامات البقاء وإمكانات العطاء، حتى إذا بدأ العصر العثماني أخذت صورة التدهور والإعياء الحضاري تكتمل شيئًا فشيئًا، وينطبق هذا على الحياة الأدبية التي لفَّها الجمود لفًّا، ويلخص هذه الحقيقة جودت الركابي بقوله: "إن الأدب قد حافظ على رونقه في هذين العصرين (الزنكي والأيوبي)، وتماسك بعض الشيء في العصر المملوكي، ثم انحدر انحدارًا واضحًا في العصر العثماني".[2]

ومن الواضح أن الحياة الفكرية والأدبية في العصر العثماني قد تدهورت إلى حدٍّ بعيد، وكان هذا التدهور واضحًا في العناية باللغة العربية وآدابها؛ إذ يقول محمود سالم –

1 يُنظر: زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، ص290.

2 الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص8.

وهو أحد المعتدلين في نظرتهم إلى أدب العصر العثماني – رابطًا بين الحالتين الفكرية والأدبية: "شغل أهل العلم بخدمة الإنجازات العلمية السابقة شرحًا وتذييلاً، وتراجع التعليم، فغلبت الأمية على الناس، وتراجعت اللغة العربية إلى المرتبة الثالثة بعد التركية والفارسية، فضعفت السليقة اللغوية، وقلَّ التحصيل اللغوي، وقد ترك هذا الأمر أثره في صحة الأداء الأدبي وفصاحته"،[1] ويضرب بعض الباحثين لذلك مثلاً ما وصل إليه الأمر في القرن العاشر الهجري حين "لم تنل اللغة ولا نال الأدب في هذا القرن العاشر حظًّا كبيرًا من العناية، فقد اقتصر طلاب النحو والأدب خاصة على كتابين أو ثلاثة كتب من الكتب المختصرة أو المنظومة (التي ساق أصحابها مادتها النحوية أو الأدبية في أراجيز)، فكثرت الشروح على هذه الكتب القليلة، أما في البلاغة خاصة فمال الشعراء والكتاب إلى البديع، فتلاعبوا بالألفاظ وبالغوا في ذلك حتى حالت جُملهم وأبيات شعرهم ألغازًا وأحاجي، ثم غمض معناها لكثرة إشاراتهم الطائرة إلى مدارك الفقه والنحو، وإلى أسماء كتب ليس للرجل العادي اتصال بها"،[2] ولم تكن الحياة الفكرية على ذلك القدر من الجمود والضعف في مصر أو الشام فحسب، ولا سيما إذا علمنا أن الوجود العربي في الأندلس كان قد انتهى حينها – أو هو على وشك الانتهاء – موقفًا معه ذلك الإسهام الفكري الأدبي الثرَّ للأندلسيين، كما لم يكن المغرب العربي أفضل حالاً ابتداء من القرن العاشر؛ إذ "ظل القرن الهجري العاشر فقيرًا في النتاج الثقافي بالإضافة إلى القرون التالية".[3]

وهكذا نجد الباحثين يكادون يُجمعون على أن الدور العثماني من هذه الحقبة كان مرحلة تراجع هوى فيها الخط الأدبي في الأقاليم العربية الكبرى في مصر والعراق والشام إلى أضعف مستوياته، ولاقى الأدب والعلم فيه سوءًا وانحطاطًا لم يُعهدا قبله في أي

1 محمود سالم، **أدب الدول المتتابعة؛ الدولة العثمانية**، ص417.

2 فروخ، عمر، **معالم الأدب العربي**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، د.ت)، ج1، ص102.

3 المرجع السابق, ص100.

عصر؛ إذ تبلورت ملامح الضعف والجمود التي غزت الحياة الأدبية والفكرية في شكلها النهائي في العصر العثماني؛ لذا إذا حُمد للعصر المملوكي جمعُه معارف السابقين وتوثيقها وحفظها خشية الضياع إبان هجمة كاسحة وفزعٍ على الثقافة والفكر، فإنه لم يكن ليُحمد للعصر العثماني استمراره على المنوال نفسه والغرق في الحواشي والشروح وشروح الشروح والتعليقات والمناظيم والمختصرات؛ إذ عُدَّت هذه الظواهر علامات عقم وجمود وعجز عن إنتاج معرفة جديدة تضيف للثقافة والفكر جديدًا، مكتفية بالاتكاء على المعارف السابقة وإعادة إنتاجها وتقديمها في صور مختلفة نظمًا أو شرحًا أو اختصارًا أو تعليقًا، بحيث أصبحت ذات صبغة مدرسية تعتني بتلقين المعارف السابقة لطلاب العلم والوقوف بالنشاط الفكري عند هذا الحد، وقد حدا هذا الأمر بجرجي زيدان إلى تسمية هذا العصر (عصر الحواشي والشروح)، وهو يذهب بعيدًا في وصف الحياة الفكرية الأدبية حين يقول: "أما الآداب العربية على الإجمال، فأصبحت في أحطِّ أدوارها، وندر نبوغ العلماء والمفكرين أو المستنبطين فيها، وأكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبل الشروح والحواشي والتعاليق وشروح الشروح ونحوها، ويصح أن يسمى هذا العصر (عصر الشروح والحواشي) كما سمينا العصر المغولي [المملوكي] (عصر الموسوعات والمجاميع)"، ثم يذهب في تعداد بعض مظاهر الضعف في هذه الحالة، فيقول: "وشاع في هذا العصر التصوف، وتعددت الطرق الصوفية، وكثر التأليف بلا نظام مثل: الكشكول، وانحط أسلوب الإنشاء، حتى أوشك أن يكون عاميًّا، كما في قصص بني هلال ونحوها، مما وصل إلينا من القصص الموضوعة في عصور الانحطاط، بعضها وضع في أواخر العصر المغولي، والبعض الآخر في العصر العثماني".[1]

أما الباحثون الذين تقدموا للدفاع عن هذه الحقبة بأكملها (في دوريها المملوكي والعثماني) فلم يجدوا بُدًّا من الاعتراف بأن العصر العثماني كان عصر جمود وانهيار

1 زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج3، ص292.

واضح للثقافة والفكر العربيين، فيقول بكري شيخ أمين: "ولما جاء الأتراك العثمانيون واحتلوا الشام ومصر؛ تقهقرت الحركة الثقافية، وراحت تتراجع شيئًا فشيئًا على توالي الأيام، وطغى الجهل على الناس طغيانًا يكاد يكون تامًا".[1]

وثمة عوامل كثيرة أدَّت إلى وقوع الحياة الفكرية العربية في تلك الهوة إبان الحكم العثماني، لكن يبدو أن الدولة العثمانية ذاتها تتحمل قسطًا كبيرًا من مسؤولية كل ذلك التراجع، ولربما كان لطبيعة النظام العثماني ذي الصبغة العسكرية بالإضافة إلى لغة الدولة غير العربية، واستبعاد اللغة العربية من عالم الإدارة والسياسة؛ دورٌ في رسم سلوك الدولة تجاه الثقافة والفكر العربيين؛ إذ ترجمت ذلك إلى تصرفات كان من شأنها الوصول بالثقافة والفكر والأدب العربي إلى ما وصل إليه، ولم يقف التأثير السلبي للعثمانيين عند حدود الجمود والثبات عند المستوى السابق، بل إنهم حرموا البلاد التي سيطروا عليها من عوامل النهوض، والتقدم المادي والأدبي لتنقل إلى عاصمة الدولة، وأُهملت الأقاليم العربية، وكان التعصب أحد محددات سلوك الدولة، وضُيِّق على الحريات مما أدَّى "إلى خمول الحركة العقلية، فأدَّى كل ذلك إلى ضعف اللغة العربية والأدب العربي، وفقدت العربية مظهرًا من مظاهر العناية بها... فأدَّى ذلك إلى سقم اللغة وضعف أذواق الأدباء وتقيُّدهم بالصناعة الممقوتة، ومجاراة الفاتحين في لغتهم وعاداتهم... كما تفشَّت ألفاظهم في رُتَبِ الجيش والإدارة، واختلط هذا الدخيل باللسان العربي"،[2] فانطفأت المصابيح التي كانت مشتعلة في العصور السابقة كما يُعبِّر عن ذلك أيضًا شوقي ضيف الذي يصف ما آلت إليه الحياة الأدبية والشعرية في عهد العثمانيين بقوله: "ولا نستطيع أن نقول إن الشعر انعدم في العصر العثماني، فقد كان موجودًا، ولكنه وجود خير منه العدم؛ إذ اقتصر الأمر على جماعة يقرؤون بعض القصائد الموروثة، وخاصة التي كانت

1 شيخ أمين، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، ص60.

2 يُنظر: الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص136.

قريبة من عصورهم، ثم يُعارضونها أو يُخمِّسونها أو يُربِّعونها، فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال، وإنما هي تقليد ركيك ضعيف"،[1] كما يسوق اليوسفي – مع تحذيره من مكائد التسمية، وما تنطوي عليه من تبسيط– جملة من النصوص التي وصفت العصر منذ القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلاديين بأحكام ومقررات نظرية كلها ترشح صراحة أو مواربة بتحقير المنجز الثقافي لهذه المرحلة ووصفه بالقرون المظلمة أو عصور الانحطاط، كما في نصوص: سلامة موسى، وميخائيل نعيمة، ويوسف الخال، ونزار قباني، وعبد الواحد لؤلؤة، ومحمود سليم رزق، وغيرهم،[2] وقد أشار اليوسفي أيضًا إلى أن خطاب التحقير هذا يُعلن عن نفسه في تأسٍّ على الذات، وتفجُّع على الشعر العربي، لكنه في الوقت ذاته أشار إلى موقف معاكس تمامًا يُعدُّ استثناء من حالة التسليم بانحطاط الشعر في العصر العثماني، هو موقف الاحتفاء بالمنجز الشعري لهذه المرحلة وقدَّمه أدونيس في كتابه (الثابت والمتحول)، باعتباره لحظة في مسارات تحولات الشعر العربي، أو جزءًا من قوى التحول المعاصرة، وقد بيَّن اليوسفي في معرض تحليله خطاب أدونيس كيف أن هذا الخطاب كان مغرقًا في نزعته النظرية، وأنه تجلٍّ محضٌ للرؤية الأيديولوجية لأدونيس،[3] التي كونت نظرته إلى مسألة الحداثة، ومن ثم شكَّلت موقفه من شعر عصر الإحياء الذي تجاهله وأنكر وصفه بالإحيائية؛ قاصدًا إلى جعل بداية الإحياء الحقيقي مع بروز الشعراء الرومانسيين من مثل جبران والشابي وغيرهما.[4]

على أن من الباحثين الذين دافعوا عن الحالة الأدبية للعصر العثماني محمود سالم محمد الذي درس أدب العصر العثماني، وقدَّم تسويغاته لما قد يراه غيره إخفاقات

1 ضيف، **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ص509.

2 يُنظر: اليوسفي، **فتنة المتخيل**، ج1، ص32- 38.

3 يُنظر: المرجع السابق, ج1، ص38- 43.

4 لمزيد من التفصيل حول رأي أدونيس في شعر عصر الإحياء وما سبقه من شعر العصر العثماني وتصوره لحداثة الشعر وجودته؛ يُنظر: أدونيس، **الثابت والمتحول**، ج3، ص45-58.

وهنات، مبينًا أن الأدباء في هذا العصر كانوا يحاولون اختراق دائرة التواصل الأدبي الضيقة، وأن الأدباء العرب في هذا العصر لم يستسلموا لظروف عصرهم متجهين بالأدب نحو الأدب الفن الخالص؛ لذا لم يكن هذا الأدب في صورة واحدة، بل كان متنوعًا تنوُّعًا شديدًا فيه الأدب التقليدي، وفيه الأدب الإبداعي، وفيه الجيد والرديء، وأن أدباء ذلك العصر لا ينبغي لهم أن يتحملوا تبعات اختلاف مفهومهم للأدب عن مفهومنا له، داعيًا إلى تصحيح الانطباع الخاطئ الذي رسخه بعض الدارسين المعاصرين في الأذهان عن أدب العصر العثماني،[1] على أن ما يشير إليه محمود سالم محمد هنا من اختلاف مفهوم أدباء العصر العثماني للأدب ما هو إلا تسويغ لشيوع تلك المظاهر؛ إذ إن تسليمنا بذلك يعني القبول بإهدار نتائج التجارب الأدبية السابقة، وما تُقدِّمه من تطوير لأساليب التعبير الأدبي، وتسويغ عدم الاتصال بها، والبناء عليها باختلاف مفهوم الأدب بين مرحلة وأخرى، وهو أمر يصعب الإقناع به.

وبالجملة تحمل هذه الحقبة سمات خاصة بالفكر والأدب، شكَّلتها الأوضاع السياسية والاجتماعية الخاصة التي لم يمرَّ بها التاريخ العربي من قبل، فملامح التراجع التي رافقت بدايات العصر المملوكي والتي رصدها الباحثون؛ وصلت إلى صورتها النهائية في العصر العثماني، فكانت صورة بادية الضعف والهزال للحياة الفكرية والأدبية،[2] وقد كان لهذا الأمر تجلياته وآثاره البالغة في الأدب بعامة وفي الشعر بخاصة.

**خاتمة**

لا يُنكر مهتمٌّ بالحركة الأدبية والفكرية بعد سقوط بغداد إلى القرن الثالث عشر للهجري؛ أن الحياة الفكرية والأدبية في العهد العثماني شهدت انحطاطًا بارزًا في الجانب

---

1 يُنظر: محمود سالم، **أدب الدول المتتابعة، الدولة العثمانية**، ص421.

2 يُنظر: زيدان، **تاريخ آداب العربية**، ج3، ص292؛ الركابي، **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، ص120-135؛ فروخ، عمر **تاريخ الأدب العربي**، (بيروت:دار العلم للملايين، ط 4، 1984م)، ج3، ص610.

المتعلق باللغة العربية وآدابها، وأحد أهم تلك أسباب التخلي عن اللغة العربية لغة رسمية للدولة، واستبدال اللغتين التركية والفارسية بها، فاقتصرت الأعمال الأدبية العربية آنذاك على الشروح والحواشي، وتراجع الأدب العربي بعامة، وتراجعت معه السليقة والتحصيل اللغوي، ومن خلال ما سبق أيضًا نجد أن أغلب الباحثين يتفقون على أثر الدولة العثمانية في تراجُع الأدب العربي في أكبر الأقاليم العربية من مثل مصر والعراق والشام، ووصل إلى أضعف مستوياته ولاقى الأدب والعلم فيه انحطاطًا لم يعهده من قبل، فالذي يُحسب للعصر المملوكي أنه جمع المعارف التي سبقت عصره ودوَّنها، ويؤخذ على العهد العثماني أنه تخلى عن ذلك الجهد، ناهيك عن عجزه عن إنتاج معرفة جديدة.

وبعامة مُمَثَّلةً في العهدين المملوكي والعثماني؛ طبعت هذه الحقبة صفات خاصة متماثلة في الفكر والأدب؛ كانت نتيجة الأوضاع السياسية والاجتماعية، وطبعتها ملامح التراجع التي بدأت بسقوط الخلافة في بغداد على يد المغول في القرن السابع، واستمرت إلى نهاية الدولة العثمانية في القرن الثالث عشر، فكانت صورة مكتملة للضعف الفكري والأدبي، وهذا ما كان له الأثر الواسع في الحركة الأدبية العربية بعامة، والشعر بخاصة.

## References: المراجع:


Adonis, ‘Alī Aḥmad Sā‘īd, *Al-Thābit wa Mutaḥawwil*, (Beirut: Dār al-Awdah, 1st Edition, 1978).

Al-Ayyūbī, Yāsīn, *Āfāq al-Shi‘r al-‘Arabī fī al-‘Asr al-Mamlūkī*, (Lebanon: al-Nāshīr Gros Press, 1st Edition, 1995).

Al-Kitābī, Muḥammad, *al-Ṣirā‘ baina al-Qadīm wa al-Jadīd fī al-Adab al-‘Arabī al-Ḥadith*, (Dār al-Baiḍā’: Dār al-Thaqāfah, 1st Edition, 1982).

Al-Rukābī, Judat, *al-Adab al-‘Arabī min al-Inḥidār ila al-Izdihār*, (Damascus: Dār al-Fikr, 1982).

Al-Yūsufī, Muḥammad Luṭfī, *Fitnah al-Mutakhayyil*, (Beirut: al-Mu‘assah al-‘Arabiyyah li al-Dirāsāt wa al-Nashr, 1st Edition, 2002).

Al-Zayyāt, Aḥmad Ḥasan, *Tarīkh al-Adab al-‘Arabī*, (Cairo: Dār Nahḍah Miṣr li al-Ṭibā‘ah wa al-Nashr, 42nd Edition, no date).

Balāshīr, Rajīs, *Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī Dirāsah fī al-Tārikh al-Adabī, translated by Ibrāhīm Kīlānī*, (Algeria: Dār al-Fikr, 1st Edition, no date).

Furukh, ‘Umar, *Ma‘ālim al-Adab al-‘Arabī*, (Beirut: Dār al-‘Ilm li al-Malāyīn, 1st Edition, no date).

Furukh, ‘Umar, *Tārikh al-Adab al-‘Arabī*, (Beirut: Dār al-‘Ilm li al-Malāyīn, 4th Edition, 1984).

Maḥmud Sālim, Muḥammad, *Adab al-Duwal al-Mutatābi‘ah; al-Dawlah al-‘Uthmāniyyah*, (Abu Dhabi: Hay‘ah Abū Ẓabī li al-Siyāḥah wa al-Thaqāfah, 1st Edition, 2012).

Mūsā Bāshā, ‘Umar, *Tārikh al-Adab al-‘Arabī; al-‘Asr al-Mamlūkī*, (Beirut: Dār al-Fikr al-Mu‘āṣir, 2nd Edition, 2004).

‘Āshūr, Fāyid, *al-‘Alāqāt al-Siyāsiyyah baina al-Mamālik wa al-Mughūl fī Dawlah al-Mamlūkiyyah al-Ūlā*, (Cairo: Mu‘assah Al-Ma‘ārif li al-Ṭibā‘ah wa al-Nashr, 1st Edition, 1976).

Ḍīf, Shawqī, *al-Adab al-‘Arabī al-Mu‘āṣir fī Miṣr*, (Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 8th Edition, no date).

Ḍīf, Shawqī, *al-Fann wa Madhāhibuhu fī al-Shi‘r al-‘Arabī*, (Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 10th Edition, no date).

Salām, Muḥammad Zaghlūl, *al-Adab fī al-‘Asr al-Mamlūkī*, (Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 1st Edition, 1971).

Shaykh Amīn, Bakrī, *Muṭāla‘āt fī al-Shi‘r al-Mamlūkī wa al-‘Uthmānī*, (Beirut: Dār al-Āfāq al-Jadīdah, 1980).

Zaidān, Jurjī, *Tarīkh Ādāb al-Lughah al-‘Arabiyyah*, (Egypt: Dār al-Hilāl, 1st Edition, no date).